

# تقديم الكتب

## ورقات

عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية

تأليف : حسن حسني عبد الوهاب  
ط. مكتبة المنار - تونس سنة 1966  
475 ص. 1/8 كبير (القسم الثاني)  
تقديم : الشاذلي بو يحيى

لم يطل انتظار أهل الأدب والعلم بعد ظهور القسم الأول من كتاب « الورقات » للاستاذ ح.ح. عبد الوهاب حتى تلاه القسم الثاني من هذا التأليف الضخم الدسم .

ولعلنا شخصيًا كنّا أشدّ الناس انتظارا وأقلّهم صبرا فأكثرهم ارتياحا لظهور هذا القسم الثاني من الكتاب . ذلك أننا في عرضنا للجزء الأول (1) لم نقتصر على التعريف بالكتاب ومحتواه بل اعتمدناه لنصل من خلال صفاته الى ما نعتقد انه غاية النقد الصحيح وهو الوقوف على خصائص المؤلف ومميزاته من حيث المعرفة والاتجاه في البحث ومنهج التأليف وأسلوب البسط والتعبير .

وظاهر أنّ الحكم في هذه النواحي لا يمكن أن يكون نهائيا ولا كاملا باتّما ما دام المؤلف ينتج أو بصورة أخرى ما لم يكن هذا الحكم مبنيا على

(1) في « حوليات الجامعة التونسية » عدد 3 1966 ص ص 215 - 238 .

جميع منتوجات المؤلف . فيبقى الحكم إذن معلّقاً والنقد محترزاً قابلياً للتغيير والتعديل ومراجعة النظر . ويبقى الناقد محتفظاً بقوله الفصل متّهماً لما كان أبداه من رأيٍ منتظراً ما قد يؤيده أو يفنّده أو يلوّنه ممّا يصدر من تأليف جديد للمؤلف .

لذا كنّا في انتظارنا هذا الجزء الثاني من « الورقات » أقلّ صبراً من غيرنا وكان ابتهاجنا بظهوره أكبر من ابتهاج غيرنا : فلقد أثبت لدينا ما كنّا ذهبنا إليه من الرأى في نقدنا الجزء الأول وأيدنا في ما رأيناه من صفات مؤلفه فاطمناً لحسن الاهتمام وارتحننا من مؤونة مراجعة الرأى ومحاولة التوفيق بين المتباينين .

ولا ريب عندي ان ذلك راجع إلى أصالة المؤلف وتمكّنه من فنّه ومثانة طريقته فلا يعترى تأليفه اضطراب ولا يسود منهجه غموض يتيه في ظلماته الباحث الناقد شأن الكتب التي تصدر عن مؤلّفين لم يتمكّنوا بعد من ملكة التأليف فهم في مرحلة التكوّن (2) .

(2) نستغني إذن بتقديمنا للجزء الأول من « الورقات » عن تحليل الكتاب لا ستنباط خصائص التأليف والمؤلف كنّا تعرضنا إليها هناك . غير أننا رأينا أن نلاحظ من الجزئيات أموراً ثلاثة : أ) يذكر شيخنا الأستاذ (ص 218) أن « الحاجب عبد الوهاب... ترك ابناً يسمى محموداً تولى « وظيفة والده بعده واقتنى أثره في أدبه وفنه وكرمه . وقد اشتهر محمود بالكرم الخاتمي حتى شبهه « المؤرخون آل بيته ببرامكة إفريقية وعاش محمود في مدة باديس وابنه المعز » . انتهى . ونحن نعلم كل هذا عن الوزير الكاتب علي بن أبي الرجال الشيباني. فقد كان له ابن اسمه محمود خلفه بعد وفاته في سامي الوظائف لدى المعز بن باديس وكان كآبيه من الجود والكرم إلى حد أن سمي آل بيته ببرامكة إفريقية . يقول ابن الأبار في ذكر محمود بن علي بن أبي الرجال (إعتاب الكتاب ط. دمشق 1961 ص 214) : « نكبه المعز بن باديس الصنهاجي . وكان هو وأبوه وأهل بيته برامكة إفريقية » . انتهى . فهل اشبه الأمر على المؤرخين أم كان التشابه إلى هذا الحد بين الأسرتين؟ ب) يذكر المؤلف اختصار ابن منظور لموسوعة التيفاشي (ص 457) ويشير إلى طبعة الجزء الأول من هذا الاختصار (اسطنبول سنة 1298 هـ) وعنوانه : « نثار الأزهار في الليل والنهار... » وكنا نشرنا بحثاً بالفرنسية بمجلة ARABICA (ج 10 ص 1963 ص.ص 91 - 94) أثبتنا فيه من بين ما بينا أن عنوان الجزء الأول من تأليف ابن منظور إنما هو : « سرور النفس بمدارك الحواس الخمس » لا « نثار الأزهار »... كما وهمه فارس الشدياق ناشر الكتاب . وكان اعتمادنا في ذلك البحث على النسخة الخطية التي يملكها أستاذنا ح.ج. عبد الوهاب نفسه وتحتوي على الجزئين من الكتاب وقد تفضل بإعارتها لنا جزاء الله خيراً . لكن ينبغي الملاحظة أن المؤلف حرر ترجمة التيفاشي قبل ظهور بحثنا ونشرها بمجلة « الفكر » (عدد 9 سنة 1959 ص.ص 4 - 10) ثم أثبتنا بهذا الجزء من « الورقات » .

ج) بعد أن نوهنا بتوفيق مطبعة المنار في إخراج كتاب « أبي الحسن الحصري » (حوليات الجامعة التونسية عدد 1 سنة 1964 ص 138) نسمح لأنفسنا بملاحظة بعض التقصير في طبع هذا الجزء لما فيه من كثرة العناوين الضخمة وكثرة البياض والرجوع إلى السطر بدون موجب ولا فائدة وإهمال ترقيم بعض الصفحات (في بداية الكتاب) وقلة الاعتناء بتصليح الأخطاء مما لا يستقيم دونه النشر .

فلقد صحّ عندنا ما كنّا قرّرناه بعد قراءة الجزء الأوّل : اطلّاع شاسع على الكتب العربيّة والأعجميّة من مخطوط ومطبوع . وعلم واسع يعتمد ما كنّا عدّنا من أنواع المصادر . ومقدرة عجيبة على استثمارها واستنتاج ما لا يتفطن إليه الإنسان عادة لما حصل لمؤلّف « الورقات » من كبير الدراية بالتاريخ والعمران وشؤون البشر حتى أصبحت الجزئيّة التافهة الملقاة في نظر غيره دليلا واضحا عنده يفتح أبواب الاستقراء بإضافتها الى غيرها ممّا ينفرد أحيانا بعلمه وفي ذلك سرّ ما اشتهر به وعرف عنه من الحدس . والحدس كما علمت او الافتراض — إذا ما توفّر معه العلم — بداية الاكتشاف ومصدر البحث المثمر الخلاّق .

كما صحّ عندنا أيضا وتأكّد ما كنّا قرّرناه من صفة الشمول المطلوق والتبحّر في المعرفة بشتّى أنواعها وهي صفة تجعلنا نتقدّم خطوة أخرى في التعرف على خصائص الأستاذ ح.ج. عبد الوهّاب العلميّة وخصائص البحث العلميّ عنده : ذلك أنّ جلّ ما يقرّره إنّما هو نتيجة بحث لا مجرد رواية . أي أنه لا يقتصر على نبش دفائن الأسرار لاستخراجها وعرضها بل هو بعد ذلك يعملها بأن يؤوّلها او يلحقها بغيرها ممّا يجانسها حتى يتولّد من ذلك كلّ شيء جديد قد لا يتفطن إليه الإنسان بدون عمليّة جمع الأشياء والنظر إليها نظر الشمول . ونعني بهذا كلّ شيء السموّ من درجة مجرد الباحث المكتشف الذي وقف على نتيجة البحث فوقف عندها إلى درجة العالم الذي يتفقه في ما اكتشف ليدمج في نظريّة علميّة شاملة . وهو ما كان جعلنا نرى فيه — في ما سبق أن كتبنا — حقيقة المؤرّخ بمفهومه الحقّ لا مجرد الأخباريّ وإن طال باعه في ما روى وأثبت :

فالبحت عن « سوسة الأغليّة... » مثلا (ص.ص. [9] — 150) ليس مجرد وصف للمدينة وتاريخ إنشائها وتطوّرها فقط بل هو إحياء — بصحيح معنى الكلمة — لهذه المدينة في معالها ودروبها وأسواقها ورحابها بين أسوارها

وما أحاط بها من قرى ومخارس بل وكذلك هو بعث لقرون خلت من أجيالها فترى القوم في تجمعتهم واثلافهم ليكونوا شيئا فشيئا أمة ذات ميزات خاصة بهم يتميزون بها عن غيرهم ولا يقبلون الدخيل على عوائدهم وإن كان ذلك الدخيل قد أتى به الأمراء وحاشيتهم — كاللهو بالسماع وآلاته (ص.ص 59 — 60) — ثم انك لتعلم علما طبيعيا من خلال البحث أسباب ذلك الامتياز وكيفية نشأته وهي هي أسباب نشأة المدينة : حراسة ومرابطة وذود على حوزة الدين والوطن الى هلمّ جرّا . وهذا هو الذي قرّرناه في تقديمنا للجزء الأول من الكتاب عندما قلنا إن التاريخ بمعناه الصحيح — وكما بدا لنا أنه يتجسّم في تآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهّاب — إنما هو ذلك الذي يدرس عصرا فيستطيع بعث أهل ذلك العصر حتى يراهم القارئ أمام عينيه في حياتهم اليومية وعوائدهم وأشغالهم وكدهم ولهوهم بل وشواغب أفكارهم أيضا وآمالهم .

وانظر إلى غير هذا الفصل من الكتاب . انظر إلى فصل الموسيقى (ص.ص 171 — 274) ترى إزاء البحث العلميّ الخصب المتين حياة اللهو — والجدّ أيضا — في مجالس السمر وأعقار البيوت وتدرّب من اتّخذ الغناء صناعة وكّد من اشتغل بتلقينه وجمع ألحانه ووضع قواعده وصنع آلاته . وقل مثل ذلك في صناعة الكاغذ (ص.ص 153 — 168) وكذلك تراجم الرجال فهي تصوير لهم ولأجيالهم غالبا ثم هي صورة حيّة ناطقة جذابة بما فيها من عناصر الحيويّة .

فباستيعاب الموضوع على الطريقة التي بسطناها في عرضنا السابق وبهذه الحيويّة التي يسبغها المؤلّف على مواضيع أبحاثه يشوّق القارئ إلى الإقبال على الكتاب بل إلى محبّته . ذلك لأنّ المؤلّف يعطف على عمله هذا ويحبّه فيسري هذا العطف على الكتاب وهذه المحبّة من المؤلّف الى القارئ . وقد سبق أن أشرنا الى ارتياح القارئ إلى مطالعة تآليف ح.ح. عبد الوهّاب وحاولنا تعليله بتحليل مواطن الإصابة والإبداع من حيث المعنى والمبنى .

ويؤيد ذلك كله هذا الجزء ويزيده تمكنا من يقيننا ووضوحا بهذا الذي ألحنا هنا خاصة في بيانه وهو ما سميناه بعطف المؤلف على ما يتصدى له بالدّرس ومحبتّه زيادة على الاهتمام به . فهي عناية أكثر منها اعتناء .

أفلم تشعر بذلك وأنت تقرأ بحثه عن « سوسة الأغلبية » ؟ ألم تر من وراء عزم العالم المؤرّخ على التعريف بمآثر الأغلبية لإرادة المولع بهم إبراز مفاخرهم ؟ بل فوق ابتهاجه بعظمتهم ترى إشفاقه عليهم وغيرته لما نالهم من تظافر بغبي بني عبيد وجحود المؤرّخين على طمس معالمهم . بل ومن وراء هذا وذاك ترى تعلقا بالأغلبية يحبّب لك أيضا دولتهم وعصرهم من بين عصور تونس الإسلامية .

إلا أن الميل إلى هذه الدولة لم يكن على حساب ما لغيرها من الدول . فلئن هو نوه بفضل الأغلبية على بني عبيد في مثل قوله (ص 202) : « مهّد بنو الأغلب وسائل الحضارة وأسبابها إلى الفاطميين كما أنّهم يسّروا لهم السبيل إلى مدّة سلطانهم على إفريقية والمغرب وجزائر البحر المتوسط » فلقد أشاد بسال المهلب الذين حكموا إفريقية قبل الأغلبية وأطرى عليهم إطراء من يعطي كل ذي حقّ حقه : فالشغف والهواية والإعجاب لم تذهب عنه النزاهة التي هي أسّ العلم وقد كنّا بسطنا القول في اصطباغ أبحاث أستاذنا بشروط العلم . فلا غرابة .

ويؤول بنا هذا الحديث إلى ما كنّا أطنبنا في بيانه في ذلك العرض من تلاقي صفتي العلم والأدب في تآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهّاب . وكنّا بيّنا أنّ في ذلك الميزة التي جعلت منه الشيخ الأستاذ بأصحّ مفهوم الكلمتين . وإذا باستنتاجنا هذا يؤيده الجزء الثاني من « الورقات » أيّما تأييد .

فالصبغة العلميّة التي تظهر حتى في اللّغة وقد رأينا أنّها لغة البسط والبيان في وضوحها ومثانتها واجتنابها زخارف البديع تنسجم مع الصبغة الأدبيّة التي

تجعل الكتاب ينبو عن التبويب - رغم التبويب - ويكثر فيه الاستطراد ويمتزج فيه الجدلّ الرصين بأخبار ذوي الهزل واللهو والمجون .

ولقد أصابتنا حيرة ونوع من الشعور بالخيبة عند أول تصفّحنا الكتاب لما رأينا رבעه قد خصّص « للمواعظ والنوادر والملح التونسية » (ص.ص 319 - 436) وخشنا أن يكون ما كنّا توسّمناه بعد مطالعة الجزء الأول من تناسب الصبغتين العلميّة والأدبيّة في طريقة ح.ح. عبد الوهّاب قد أخطأنا فيه وخاب ظنّنا . لكنّ مطالعة ذلك الباب - وقد قرأناه كغيره من فصول الكتاب من أوله الى منتهاه - جعلتنا نقف على غاية للمؤلّف لطيفة من إirاده ما احتوى عليه هذا الباب : وهي أنّ هذه « الأفكار » و « الحوادث » و « النكت » التونسية تكشف عن ناحية غير حقيرة من العقليّة والنفسيّة التونسيّة فهي تساهم إذن مساهمة ذات بال في تصوير الحضارة التونسية لا تصويرا جافاً لكن - كما سبق لنا بيانه - تصويرا حيّاً « ناطقا » . والحق أنّ المؤلّف نبّه إلى هذا الغرض إذ قال في مستهلّ هذا الباب (ص 319) : « كنت ... جمعت جملة وافرة من المواعظ الحكيمة لأسلافنا الأبرار مشفوعة « بنوادر لطيفة مقتبسة من سيرهم وأخلاقهم وشيمهم اعتقاداً مني أنّ ذلك « هو لباب الأدب وعصارتة الشهية إذ بفضلها يتعرّف القاريء الى جانب « عظيم من نفسيّة الأمّة وميولها في مجالس وعظها وإلى طرائف أحاديث « نواديها وفعلات أجوادها وظريف فكاهاتها ممّا يصلح أن يكون مرآة صافية « تنعكس فيها صورة من رقي حضارتها وبرهاناً صادقاً على رقّة شعورها « وجودة عواطفها » .

والحقّ أيضاً اننا لم نكن لنظمنّ كلّ الاطمئنان الى هذا التعليل لولا ذلك الذي كنّا تيقنّاه خلال تحليلنا الكتاب وطريقته وكرّرناه غير ما مرّة ورضيناه مفهومنا للتاريخ صحيحاً من أنّ أخصّ خصائص مؤلّف «الورقات» كمؤرّخ إنّما هو « إحياء « العصور والأمم والجماعات . فلئن استطاع ذلك

بوسائل « علمية » — وقد بيّنا أنه استطاعه — فالاستعانة عليه بالوسائل « الأدبية » لا تضير بل هي تندمج في غيرها من الأساليب بمقدار خاص حتى يصير لتأليفه صبغة خاصة بها تميزه عن غيره من الكتاب فيعرف بها وتعرف به . ولا تنحصر هذه الميزة الخاصة به في ما بسطنا من مزج الأساليب واستعمال كل منها بمقدار خاص بل هي تتجاوز ذلك الى اللغة والأسلوب أيضا . ولئن كنّا أبدينا رأينا في هذه اللغة وهذا الأسلوب في العرض السابق فإن الجزء الثاني من « الورقات » — وهو يؤيد ما ذهبنا إليه من ذلك — إنما يكشف لنا عن نواح أخرى من هذه اللغة وهذا الأسلوب يكتمل بها رأينا في طريقة المؤلف لأنها تبلور هذه الطريقة وتجعلنا نحيط بها ونفهمها أكثر من ذي قبل . ذلك أننا عند رغبتنا أحيانا تقييد بعض الآراء والأفكار التي يبسطها المؤلف لم نستطع التقييد على طريقة التلخيص الاعتيادية وما ذلك إلا لإيجاز العبارة وملاءمتها الفكرة فلا سبيل الى اختصارها ولا مناص من نقلها بحذافرها .

والنبوغ والعبقريّة في أن أسلوبا كهذا علميا لا يكسوه الجفاف ولا يعترى قارؤه الضجر بل كنّا أشرنا مرارا الى لذة مطالعة الكتاب وليست هذه اللذة ناشئة عن طرافة المادة والتمتع بالاكشاف طيلة الكتاب فحسب إنمّا الى ذلك يضاف ما نحن بصدد محاولة إبرازه من خصائص أسلوب ح.ح. عبد الوهّاب وهذا الأسلوب رأينا في ما سبق صبغته الأدبية فمن ذلك نال شيئا مما جعل مطالعة الكتاب ممتعة . لكنه لم ينل من ذلك الجانب إلا « شيئا » فقط . فمن أين جاءه بقيّة دواعي المتعة إذن ؟ ترى ما هي صفات هذا الأسلوب التي تجعل قراءة الكتاب شيقة ممتعة — بعد كونه أسلوبا أدبيا ؟ —

لقد بد لنا أن من عناصر جمال هذا الأسلوب عنصرين أساسيين لست أدري هل يرى رأيي فيهما غيري من القراء بل لعل المؤلف قد لا يوافقنا هو الآخر فيما ذهبنا إليه — خاصة في العنصر الثاني منهما — وهما الأسلوب القصصي والشاعريّة .

نعم . كذا رأينا هذا الأسلوب غير ما مرّة من خلال هذين الجزأين من كتاب « الورقات » . ولن نطيل في بيان ذلك بل نقتصر على مجرد الإشارة وهي - في رأينا - كافية .

أمّا العنصر الأوّل الذي سمّيناه بالأسلوب القصصي فإنّنا نغني به أنّ المطالع للكتاب بجزأيه يقرأه كما يقرأ قصّة ممتعة ذات فصول : ولقد نبهنا مرارا في هذه الدراسة والتي قبلها إلى طرافة المواضيع وكثرة الاكتشافات ووفرة المعلومات عن أحداث وأحوال ورجال كان النسيان قد أسبل عليها رداءه . ولقد قرّرنا منذ العرض الأوّل أنّ المؤلّف لا يفرد الأمر الذي يدرسه ولا يفصده عمّا يحيط به أو يسبّبه أو يتبعه . وإنّما سبّله في كلّ ما يتناول توخّي الاستقصاء والشمول حتى يرتبط الشكل بشكله وتحصل للقاريّ النظرة الشاملة والدراية الكاملة . ولقد بيّنا كذلك حرصه على تناول المسائل من بداية أمرها ثم مسيرتها في مختلف أطوارها الى منتهاها . وغير هذا وذاك من طريقة المؤلّف أطلنا تحليله وبسطه في موضعه . أفلا تكون هذه الصفات كلّها عناصر قصصيّة تجعل من كلّ باب قصّة يتتبّع القاريّ أطوارها في شغف ولهفة وإذا ما تركها انتقل منها الى أخرى لا تقلّ عنها طرافة وغرابة ومفاجآت مع تلك الحيويّة التي أطلنا تكرار ذكرها ؟

ثم نضمّ القصّة الى القصّة في ذهنك اي تستجمع هذه الأبواب كلّها ممّا جاء في الجزأين - وما سيأتي في ما بعدهما - وإذا بك أمام قصّة من أروع قصص الإنسانية ألا وهي « قصّة الحضارة العربيّة بإفريقية التونسية » .

ألم أقل لك منذ بداية العرض الأوّل إن عنوان الكتاب : « ورقات » (3) عنوان متواضع ؟ ثم ألم أختم ذلك العرض بذكر ما يطفح به الكتاب من حبّ هذا الوطن فأراد مؤلّفه إبراز محاسنه ومآثره فنعل ؟

(3) بما أن أجزاء « الورقات » لم ينته ظهورها فإننا نقترح في ترجمة العنوان الى الفرنسية عبارة (3) Bonnes feuilles عوض feuillets فهي أليق بمحتوى الكتاب ونسبته إلى كتاب أصخم « كتاب العمر » .



لذلك كله لم تجفّف الناحية العلميّة روح الكتاب .

ولقد أردنا أن نضرب لذلك مثلاً تحليل الباب المسمّى « بقصة جزيرة قوصرة العربيّة » (ص.ص. 277 — 318) فأعرضنا عن ذلك خوف الإطالة وفي العنوان ذاته دليل على ما ادّعيناه . ثم أيّ شيء أشدّ إثارة للجوّ القصصيّ من جزيرة صغيرة تكاد تكون مجهولة تصفّقها الأمواج وتنقلها أيدي الغزاة والقراصنة ؟

نعرض عن تحليل ذلك لكنّنا نحفظ بهذا الباب « قصة جزيرة قوصرة العربيّة » لنستدلّ على العنصر الثاني من عناصر جمال أسلوب ح.ح. عبد الوهّاب — حسب رأينا — وهو — بعد الأسلوب القصصيّ — الشعريّة .

ولا نغني شاعريّة الموضوع — فقد تبيّن ذلك ممّا سبق — بل نغني الشعريّة في اللّغة والأسلوب والخيال أيّ ما يكون ما يسمّى بالشعر الخالص . ولن نحاول هنا بحثاً ولا تقريراً إنّما نعرض على القارئ « ورقة » من هذه « الورقات » يقرأها نموذجاً لما هو مبعوث في طبّات الكتاب كثير . (ص ص 315 — 316) :

« وهكذا جرت سنن الكون في عملها الفعّال منذ انبلج صبح الحضارة على ضفاف البحر المتوسّط ، فقد حملت رياحه وأمواجه الغادية الرائحة بين جوانبه بذور مدنيّات مختلفات ، تأتي بها تارة من المشرق الى المغرب وتنقلها أخرى من الجنوب الى الشمال طردا وعكسا ، وتمزجها بالتراب والرفات حتى إذا ما تألف منها هيكل منسجم الظاهر متماسك الأجزاء انسجمت في ثناياه مؤثرات خفيّة اندست في باطن التربة وفي أعماق النفوس وسرت فيها سريان الماء في العود وجرت جريان الدم في الشرايين ، صنعة الله ، ومن أحسن من الله صنعا !

« فمن تلك البذور ما يضمحلّ بعد حين ويندثر لحقارته وعدم صلاحيّته ومنها ما يظلّ حيّاً نامياً دهر الداهرين لمتانة في أساسه وقوّة في وقعه وفائدة

« في بقائه مصداق قول الله تعالى : (فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) » . انتهى .

هكذا يبدو لنا الشيخ الأستاذ حسن حسني عبد الوهّاب من خلال ما ظهر من تآليفه عالماً عاملاً (4) ثبتاً يغلب عليه علم التاريخ والعمران البشري وتراجم الرجال . وأديبا كاتباً سلس اللّغة والأسلوب ينزع الى البساطة مع مقدرة على الإيجاز . حسن الطريقة مليح العبارة قريب الفائدة والإمتاع .

فعسى أن يستمرّ ظهور مؤلفاته — خاصّة « كتاب العمر » منها — حتى يتسنى لأهل العلم والأدب الوقوف على هذا العمل الجليل ومعرفة درجة مؤلفه من الذكاء والعلم والبراعة فيتبوأ مكانه الذي هو أهل له من بين أعلام الأفارقة ورجالات العلم والأدب على الإطلاق .

(4) هو « عالم عامل » بمعنى أوسع من المصطلح التقليدي للعبارة . ذلك أنه وضع معارفه ومواهبه وبعض ماله في سبيل العلم والوطن والإنسانية فنقتصر هنا على الإشارة من ذلك الى ما جاء ذكره في هذا الكتاب من هدايا أهداها الى المتاحف والمكتبات (مثلاً ص 26 و 35 تعليق عدد 2) وحثه الباحثين على طرق أبواب كثيراً ما يسرّ لهم السبيل إليها (مثلاً ص ص 60 - 61 و 466...) الى غير ذلك.

# نقد الكتب

## ورقات

### عن الحضارة العربية بافريقيا التونسية

تأليف : حسن حسني عبد الوهاب  
طبع مكتبة المنار - تونس سنة 1965  
472 صحيفة 1/8 كبير (القسم الاول)

سبق لنا أن زعمنا منذ زمن غير بعيد (1) أن كتاب « بساط العقيق » الذي ألفه شيخنا الأستاذ ح . ح . عبد الوهاب منذ نصف قرن لم يزل مرجعا أساسيا وتصويرا كافيا لحضارة القيروان وأن ما نشر في الموضوع من بعد لم يزد عليه شيئا يذكر . غير أن الشيخ الأستاذ ما فتى منذ ذلك العهد يبحث عن تاريخ تونس وحضارتها ويجمع لكتابه الكبير فيها وثائق ومواد قضى العمر في التنقيب عليها بين الكتب المطبوعة والمخطوطة والنقائش والآثار والمتحف والآنية والصور والنقود وما إلى ذلك . وكان بين الفتيحة والأخرى يصدر للناس غررا من اكتشافاته (2) تزيد القراء بتونس والشرق والغرب إشتياقا إلى

(1) « حوليات الجامعة التونسية » عدد 2 ص 239.

(2) دراسات للمؤلف نشرت مفردة أو على المجلات التونسية والأجنبية بالعربية والفرنسية منها ما ضمه كتاب « الورقات » هذا .

ما وراء ذلك من ذخائر هي موضوع كتابه الكبير « كتاب العمر » المنتظر . ثم رأى — جزاه الله — ان يجيب إلى رغبة أصدقائه وتلاميذه فأخرج من ذلك الكتاب فصولا اقتبسها من مقدّمات بعض أبوابه نشر القسم الأوّل منها ووعد بقسمها الثاني إلى حين .

وظهر الكتاب بعنوانه المتواضع « وراقات » إلاّ أنّ قارئه لا يلبث ان يتبيّن اتساع هذه الدراسات وعمقها . فهسي وإن حرّرت في مواضيع معيّنة فإنها تفيض عن نطاق عناوينها الضيّق فتتناول جلّ مظاهر الحضارة والعمران .

وأوّل ما يشعر به الإنسان وهو يقرأ هذا الكتاب انّ الميدان ميدانه والموضوع موضوعه وأنه يتنقّل بين تلك الأبواب المختلفة الأغراض كأنّه عليم بها جميعا متخصص في كلّ من فنونها لا يعسر عليه فهم جزئياتها ولا الإلمام بكليّاتها بل ولا ينفر ممّا قد لا يكون من خصوص مطالعته وأبحاثه ولا يترك بابا أو بحثا آخر فضّله عليه لميل في نفسه أو هواية . ورأينا أنّ السر في ذلك يرجع إلى ما يمكن اعتباره خصائص الإنشاء والتأليف عند ح. ح. عبد الوهّاب من حيث المادّة والطريقة واللغة والأسلوب .

فالمادّة غزيرة ثمينة بكر عادة . يقف القارئ في جلّها على اكتشاف جديد أو تحقيق وإثبات ورفع لبس مع فتح الآفاق البعيدة . والطريقة يأنس إليها الباحث المتصلّع في العلم كما يأنس إليها الرّيبض الضيّق العطن لأنها تقصد دائما إلى استيعاب الموضوع والإحاطة به بالرّجوع إلى أصوله وأوائمه وبدايته وتتبع تطوّره ومراحله إلى الانتهاء إلى نهايته . فلا يشعر عندها القارئ بغرابة الموضوع عنه . واللغة سهلة واضحة قريبة والأسلوب مطبوع لا يعتريهما غموض ولا تكلف ولا تعقيد . فهما لغة النثر العلمي وأسلوبه .

فالصفة الأساسيّة في تأليف الشيخ الأستاذ هي — عندي — هذه الصبغة العلميّة في المعنى والمبنى . وبها نالت أبحاثه حظوتها الكبرى عند القراء

وبالباحثين بأوروبًا خاصّة . إلاّ أنّ قرّاء العربيّة من مجدّدين أو متشبّثين بالقديم لم يعدموا فيها — مع ذلك — ما يصبو إليه العربيّ عادة من الصبغة الأدبيّة في التآليف . فتنوّع الموضوعات والانتقال فيها من الرصين الجدّي إلى النادرة والقصّة المرفّهة عن القارئ وكذلك إيراد أخبار الرجال وأقوالهم المأثورة ونبذ من أشعارهم هو كنه الأدب عند العرب تميّز به مؤلّفاتهم من مؤلّفات الغرب وتكتسي به صبغة خاصّة بها لا تنفي عنها طابعها العلمي ولا تجرّدها من حلاوة المتعة . والأدب عندهم كما علمت فائدة وممتعة وأخذ من كلّ شيء بطرف .

وسيعرض النقد يوما إلى تآليف الأستاذ ح.ح. عبد الوهاب بالتحليل والتعليل ولا مناص من الانكباب على هذه النزعة عنده والخاصيّة بالنظر والتدبّر . ولعلّ المقام يسمح لنا هنا أن نذكر أنّ عميد الأدب والنقد في البلاد العربيّة الأستاذ الدكتور طه حسين لما أهدى إليه كتاب مؤلّفنا « المنتخب المدرسي من الأدب التونسي » من عشرين سنة خلت قرأه في ليلته — وهو يعدّ 150 صحيفة — ثم أصبح يحدث عنه . وامتزاج العلم بالأدب عند العرب سنّة معروفة تجدها في أمثال كتاب الحيوان ومروج الذهب وعيون الأخبار ونفح الطيب وغيرها من كتب الجاحظ والمسعودي وابن قتيبة والمقري ومن لفّ لفّهم .

فبهاتين الميزتين الظاهرتين في تآليف ح.ح. عبد الوهاب وبالرغم من تكوّنه العلميّ الأدبيّ من غير معلّم وبغير كليّة — إذ هو نسيج وحده — استطاع فرض اسمه في حقل أدباء العرب وعلماء الغرب فهو الشيخ الأستاذ بأصحّ معنى اللفظتين .

والكتاب لهذه الأسباب كلّها . لكونه جمع فصولا في شتّى مظاهر الحضارة ولا تصافه بصفات كتب الأدب ينبو عن التحليل . فالناقد له لا يسعه

إلاّ الوقوف منه أحد موقفين فإمّا أن يتعسفّه فيقصد — جريا على عاة الناقدين للكتب — إلى تحليله وعند ذلك ليس له إلاّ أن يستعرض فهرسه كلّه بلا استثناء — وهو طويل — وأن يعلّق على كلّ عنوان من عناوينه فيقع في أتفه أنواع النقد أو بالأحرى في لا نقد . وإمّا أن يتناول الكتاب بجملته معرضا عن التحليل فيعرف بنوع محتواه — أو أنواعه — بدون طمع في الاستيعاب والضبط ثم يستخرج خصائصه ومن ذلك يستنبط اتجاهات المؤلّف في الكتاب خاصّة ثم في إنتاجه كلّه عامّة فيحاول وصفه ووضعه في منزلته من طبقات الكتاب والمؤلّفين . وهو ما آثرناه هنا .

على أنّ هذه الفصول المتنوّعة ومشاربها المختلفة لعلّ صاحبها جمعها حول نقط مركزيّة أربع يستطيع الإنسان ربطها بها إلاّ أنّه ربط واه متكلّف لا يثبت عند الرجوع إلى تفاصيل المضمون . فالنقطة الأولى هي « قصّة الثقافة التونسية » في نظرة شاملة تنيرها من نشأتها إلى عهد النضج والاكتمال : من بني زيري من صنهاجة . والنقطة الثانية « بيت الحكمة التونسي » موضوع طريف خطير الشأن يكشف للعلم خبايا من التاريخ كان قد ضمّتها النسيان أحقابا . والثالثة في « مآثر بني الأغلب » والأخيرة في « النقود التونسيّة » .

وهذه المحاور الأربعة ليست إطارات للبحث إنّما هي كما حدّناها مجرد نقط نسج المؤلّف حولها ما شاءت له علومه الفياضة ان ينسج . فلا يظنّ القارئ أن كلّ ما جاء فيها ينحصر في مضمون عناوينها .

قصّة الثقافة التونسيّة ؟ بعد نظرة خاطفة شاملة لها في جميع عصور تاريخ تونس (ص.ص 23 — 36) يفتح الكتاب على بحث طويل ممتع في تأسيس القيروان ! (ص.ص 39 — 62) وهنا يترك المؤلّف موضوعه — وهو في الظاهر قصّة الثقافة لأنّه سيعود إليها بعد الحديث عن القيروان (من ص 64 إلى ص 266) — ليبرز في ما نعتقد انه مظهره الأساسي كعالم وهو التاريخ بل

نوع خاصّ أو قل لون خاصّ من التاريخ هو بعد البحث والكشف وفوق البحث والكشف إرادة الفهم لا الاقتصار على مجرد المعرفة . فإذا ما عثر على الحادث أو الأثر فهو يريد الوقوف على سببه ومغزاه وصلته بغيره ثم ربطه بحياة الناس ونواياهم ممّا يتّصل لا بالتاريخ المجرد بل بما يسمّى بفلسفة التاريخ ولذا فإنه لا يقنع أبدا بالظاهر يقف عنده بل حيث نرى غيره من المؤرخين يتوقّف أو يعثر أو يأس أو يمرّ بالصمت فهو يقف ويسأل التاريخ والآثار أو يتساءل فيبحث ويتعنّت حتى يصل إلى الدليل القطعي أو إن أعوزه الدليل يبدي الافتراض (3) الذي تدعّمه القرائن والقياس والرجوع إلى سنن البشر وقواعد العمران في تبحّر من العلم عجيب . فمفهوم التاريخ عنده إذن ليس مجرد تسجيل ما تجود به الكتب والآثار بل هو إدراج كلّ ذلك في عملية تصوير حياة الناس في تلك العصور ثم إن ضنّت المصادر بما لديها أو بما يطلبه منها فهو يستنطقها ويفحص ما عندها ويتفقّه فيه لا أنّه يقتصر على ما تملّيه عليه شأن موقف جلّ المؤرخين منها . وتبيّن ذلك في اهتمامه الخاصّ ببدايات الأمور وأوائها وظهورها إلى الوجود لأنّ في ذلك وفي ذلك فقط الوقوف على معناها ومغزاها إذ هناك سبب وجودها أي العلّة أو الضرورة الداعية إلى وجودها . وهو ما أردنا - في شيء من الإطالة - أن نرى فيه الفرق الحقيقي بين التأريخ للحوادث أي مجرد تسجيلها وبين فهم تلك الحوادث أي كشف أسرارها وردّها إلى نوااميسها المسيّرة لها وهذا ما نعتقد أنّه مفهوم التاريخ الصحيح . ثم إذا تمّ له ذلك فتطوّر الحادث أو النظام أو المؤسسة يبدو له وللقاريء جليّاً طبيعياً يسهل الإمام به فيتتبّع إلى تقصّيه ، وهي طريقة نراه يتوخّاها في جميع النقط التي عرض إليها بالبحث كتأسيس القيروان نظر فيه إلى ما قبل القيروان (ص.ص 39 - 43) وإلى أسباب إختيار موقعها من أرض إفريقية ثم إلى تطوّراتها في جميع الميادين

(3) مثلاً ص 62 - 64 في « الوساطة بين عرب الفتح والشعوب الأخرى » وسبب سكوت المؤرخين عن بيت الحكمة وعلمائه (ص 195)

حتى إكتمالها (ص.ص 43 - 62) . وكتصّة الثقافة بتونس كيف بدأت وعلى أيدي من دخلت ثم أسباب ظهورها في ألوان خاصّة بها ثم من الذي تطلّع بها (ص.ص 23 - 266) وكبيت الحكمة (ص.ص 192 - 266) والبحث فيه آية النبوغ في جمع المواد والأدلة واستنطاق التاريخ بفضلها والتغلّب على الصعاب لإبراز هذه المأثرة العظيمة من مآثر الأغلبة وبني عبيد من بعدهم أمام أعيننا حيّة ناطقة بعد أن جعلها الدهر نسيا منسياً .

فلعلّ من خصائص المؤلف كمؤرّخ إذن تصدّيه إلى المواطن الصعاب الغامضة المعضلة يقرع أبوابها محبّة في الكشف والاختراع وابتهاجا عند الفوز حيث أحجم الناس وخابوا . وإذا ما عرض إلى العلوم والفنون وانتشار العربية والإسلام بإفريقية باحثا عن بداياتها ثم مسارا لها في تطوّرها فأهمّ ما يعتنني به مؤلّف « الورقات » رجال تلك الحركات وأعلامها الذين ساهموا في إيجادها ونموّها . وهنا نصل إلى ما يبدو لنا الغرض الأساسي من الكتاب بل وكذلك من الكتاب الكبير « كتاب العمر » حسب ما نعلمه عنه وهو معرفة الرجال الذين أنجبتهم تربة تونس فنبغوا في جميع أصناف العلم والفنّ وكوّنوا هذا الوطن وصاروا منخرة له . فتراجم الرجال بعد العثور على أسمائهم أساس بحث المؤلّف . لكنّ ما رأينا من طريقته ومفهومه للتاريخ والعلم جعله يضع هؤلاء الرجال في ميادينهم فاشتغل إذن بهذه الميادين واستقصاها في أبحاث ممتعة ثريّة شملت ألوانا عديدة من ألوان العلم والأدب والفنّ والحضارة . وكلّ من هذه الأبحاث قد يقوم بذاته مقام الكتاب المفرد المستوعب لموضوعه في دقّة من البحث وشمول في النظر وتحقيق يطمئنّ له القارئ ويرضاه . فهي تكشف لنا عن مجاهل التاريخ حيناً كبعثه لبيت الحكمة مثلاً وتثبت حقيقة مطموسة حيناً آخر كإبرازه مآثر الأغلبة ومجدهم وقد تناساه التاريخ وأعان بنو عبيد على تقديره (4) وكانقاده بعض رجالات

(4) انظر خاصة ص ص 222 - 230 و 353 - 394 وفصول تأسيس القيروان (43 - 62) والنقود التونسية (397 - 466) وغيرهما .



تونس العظام من النسيان وتحقيقه نقطا غامضة من تاريخ الحضارة والعمران أهملها المؤرخون أو أحجموا عن الخوض فيها كعملية تعريب إفريقية وإسلامها من بداية أمرها (5) وكقصّة الكتب ومكتبات إفريقية منذ تكوينها إلى نقل جلّها إلى مصر وتلاشي ما بقي منها بين البلاد (6) ودخول صناعة الكاغذ من إفريقية إلى أروبا (7)...

فتلك هي صفات المؤرّخ الأصيل : مهما كان موضوع بحثه محدودا فلن يستطيع تناوله إلّا إذا ألمّ بما يحيط بذلك الموضوع في الزمان وفي المكان والنوع لربط الأمور بأشباهاها وإنارة البعض منها بالبعض الآخر . فدراسة الحضارة والعمران في تونس الإسلامية دعت المؤلّف إلى التبحّر في تاريخ تونس منذ الإسلام وقبل الإسلام وإلى التضرّع في شتّى ميادين العرفان كاللغة والأدب والفقه والآثار والنقود وغير ذلك ممّا هو الشرط الأساسي في اكتمال صفات المؤرّخ . فكتاب « الورقات » جاء كالصورة المصغّرة لحركة مؤلّفه العلميّة فاتّصف بالصفات التي نعتقد أنّها صفاته الأساسيّة : علم واسع يشمل جلّ ميادين العرفان ويعتمد جميع أنواع الأصول والوثائق ويتوخّى الثبّت والتحقيق مع الاندفاع أحيانا إلى الحدس والتخمين وقد يبدو مصيبا في ذلك غالبا وهو مع ذلك لا يهمل جانب النقد فقد يعترف بنقص المادّة أو غدوض المسألة أو عدم الاطمئنان التامّ إلى نتيجة فيفضّل إرجاء حلّ مشكلة إلى أن تسمح الظروف أو يدعوا الباحثين الشبان إلى مواصلة الاعتناء بها . وينظر في آراء المؤرخين القدماء والمتأخرين محبّدا أو مفنّدا ومعدّلا متمّما لما عندهم .

(5) انظر مثلا ص 141 وما بعدها .

(6) ص ص 325 - 350 .

(7) ص ص 207 - 209 .

وكما أن كتاب « الورقات » اتّصف بخصال مؤلفه كعالم مؤرّخ فلا مناص له من أن يحمل في صفاته وفي طريقته ونوعه ضعف هذا النوع ونقصه . فالكتاب كما رأينا يحتوي على نظرات شاملة تؤلّف بين الجزئيات وتحيي المراحل التاريخية فتبرز المشاكل واضحة خاضعة إلى نوااميس قارّة . إلا أن النظرة الشاملة لا يكون معها الاستقصاء للمسائل العلميّة والحوادث التاريخيّة والمظاهر الحضاريّة المقصودة لا يمكن ان تتمتّع ببحث متعمّق مستأصل . والتراجع لا تزيد عادة على ما يسمّى « بعلم الرجال » لا تحلّل خصائصهم ولا تدرس اتجاهااتهم ونزعاتهم بتفصيل مؤلفاتهم وتحليلها واستخراج عناصرها التي بها تُضمّ إلى مذاهب ومدارس تعرف بها . ذلك أن الموضوع وإن كانت له وحدة تجمعه وهو العمران والحضارة في جميع مظاهرها فلا يكون عملا مخصّصا في كلّ من هذه المظاهر . هو إذن عيب هذا النوع من الكتب ونقصه ولا تبعة في ذلك على المؤلّف فيه لكن إن سمحنا لأنفسنا بالتقدّم في البحث خطوة قلنا إن هذا النقص المتّصل بالنوع ضرورة كأنّه استفحل في كتاب « الورقات » لأن مؤلفه لم يقتصر على حدود النوع فيبقى في نطاق الدراسة العامّة لا يخرج بها إلى عمل الاختصاص — وعند ذلك لا لوم ما دام « النقص » طبيعة ذلك النوع وسمته — بل هو في كلّ من هذه المسائل يروم الاستقصاء ورأينا استعصاء الاستقصاء في مثل هذا المقام ويبغي منزلة التخصّص في جميع الميادين حيث لا مجال للتخصّص في زماننا إلا في بعضها لا في جميعها لا تتّسع أرجاء العرفان . رأى اتساع الموضوع وآنس من نفسه مقدرة جبّارة على مجابهته وجمع له مادّة يعسر على الرجل الواحد جمع مثلها في حياته وشغيف بالعلم والبحث وحبّ الوطن فأقدم في حماس وغيره وتفان على عمل يفوق مجهود الواحد الفرد . لكننا سبق أن رأينا أن واحدا من أبناء هذا الوطن لم يواصل العمل الذي شرع فيه المؤلّف منذ نصف قرن فلعلّ ذلك ممّا دعاه إلى طرق جميع هذه الأبواب خشية منه على تلف ما وفقّ إلى إنقاذه من غائلة النسيان فاضطلع بذلك في مقدرة تجعل منه

الأستاذ الفذّ والإمام المتبّع في كلّ ميدان تناوله بالدرس . لكنّ التضلّع قد يعوزه تمام التفرّغ .

ولنأخذ لذلك مثلاً ترجمة القزّاز . فهو أحد أئمّة اللّغة والأدب وهو ممّن كان له الأثر العميق في بث علوم العربيّة بإفريقية فالمقام وموضوع الكتاب وباب انتشار الثقافة منه خاصّة ممّا يوجب الحديث عنه في هذا الكتاب وفعلاً فقد تكرر ذكر القزّاز والتنويه به وجاءت ترجمته مطوّلة في عشر صفحات (174 — 184) (8) وهو بحث له من السعة والتعمق والقيمة ما يضيق عنه كتاب « ورقات » جاءت في موضوع الحضارة عامّة أي في كتاب لا يقبل الاستقصاء في كلّ مادة .

يقرّر أستاذنا الجليل أن القزّاز ولد سنة 345 (ص 174) و « أقام مدّة ليست بالقصيرة في مصر كان خلالها يخدم بعلمه وقلمه الأمراء الفاطميين ولا سيّما الأمير العزيز بن المعزّ لدين الله » . وأنه ألّف كتابه الكبير بطلب من العزيز هذا (ص 175) . كلّ ذلك نقلاً عن ابن خلكان عن المسبّحي . ثم يقول : ويظهر أن القزّاز فارق مصر بعد وفاة مخدومه العزيز بالله — سنة 387 — وعاد إلى بلده ومسقط رأسه القيروان واستقرّ به إلى آخر حياته... » (ص 175). ويذكر له من المؤلّفات كتباً عديدة من بينها « الجامع » (ص 180) وكتاب « الحروف » (ص 181) ويرجّح أن القزّاز مات عن سبعين عاماً لا عن تسعين (ص 179) .

ولو أن أستاذنا الجليل لم يطمئنّ كلّ الاطمئنان إلى ما جاء في وفيات الأعيان — على أن ابن خلكان ثقة عادة عليه يعول جميع الباحثين — ووجد من الوقت والتفرّغ ما يسمح له بمقارنته بغيره من المصادر لذهب به الرأي إلى أن القزّاز ولد حوالي سنة 325 لا سنة 345 وأنّ إقامته بمصر كانت قصيرة

(8) جاء الحديث عنه أيضاً (ص 102 — 103) في باب العناية بالتعليم .

وأنّه ألّف كتابه الكبير بالقيروان لا بمصر ألّفه للمعزّ لدين الله الفاطمي لا للعزیز . وأن هذا الكتاب هو كتاب « الجامع » وأنّ القزّاز لم يؤلّف كتابا آخر اسمه « كتاب الحروف » بل هو كتاب واحد اسمه « الجامع » وموضوعه في الحروف فعرف أحيانا بكتاب « الجامع في الحروف » فكان يقال : « كتابه الجامع » أو « كتابه في الحروف » . والتبس الأمر على بعض المؤلفين فاعتبر الكتاب كتابين . وأنّ القزّاز مات عن تسعين عاما . ولعلّ النظر في المصادر ممّا يؤيّد هذا الرأي . فلنتقدّم إلى فضيلته بهذه المحاولة في تحقيق ما كان هو فاتح الباب فيه :

تعتمد المصادر كلّها على « أنموذج » ابن رشيق بلا شك . وهو كتاب مفقود استعمله الأدباء والمؤرّخون للأدب يقتبس منه كلّ ما أراد وقد ينشأ عن الاقتباس خطأ في التأويل وغلط في النقل . ومعروف أنّ جلّ المؤرّخين العرب وعلماء التراجم عندهم ينقل المتأخّر منهم عن المتقدم بلا نقد عادة . فالقاعدة إذن عند استعمالنا النصوص القديمة أن نرجّح الأسبق لأنّه أقرب إلى الأصل ولم يكثّر تداول ما يرويه بين الأيدي قبل وصوله إليه فيؤمن فيه لهذا السبب عبث التحريف والتصحيح ولأنّ ما عند المتأخّر إنّما هو عادة ما جاء عند المتقدم بشيء من المسخّ كبير أو صغير . ومن أقدم من ترجم للقزّاز ياقوت (المتوفى سنة 626) والقفطبي (سنة 646) وابن خلكان (سنة 681) وابن فضل الله العمري (سنة 748) والصفدي (سنة 764) .

أول ما نلاحظ أنّ واحدا من هؤلاء لم يذكر للقزّاز كتابا اسمه كتاب الحروف (9) . نلاحظ ثانيا أنّ ابن خلكان وحده ينسب إلى العزیز فكرة كتاب « الجامع » فتقدّم بها إلى القزّاز يطلب منه التأليف على مقتضاها . بينما يسكت ياقوت عن اسم الأمير . أمّا القفطبي والعمري فيذكران المعزّ .

(9) يذكره له ابن خير في الفهرسة ص 363 بقوله : « ... وكتاب الحروف في النحو من تأليفه أيضا » ولا يذكر له « الجامع » .

يكرّر ذلك العمري مرتين في ترجمته بينما يذكر القفطسي من التفاصيل ما لا مجال للشك بعده في أن الكتاب ألف للمعزّ بالقيروان سنة 361 قبل ارتحال الخليفة إلى مصر .

ونترك الاحتجاج بالعمري لأنه متأخر عن ابن خلكان ناقل عن غيره أحيانا — على أننا نرجّح أنه كان يملك « الأنموذج » — وقد يتّهمه الإنسان بتفضيل العبارة المزوّقة على التحقيق والتثبت . فهو يقول في القزّاز : « فاضل عزّ بالمعزّ... وألف له كتابا ما سبق إلى طريقها.... وأجازه المعزّ مرّة ثلاثمائة ألف درهم على كتاب في النحو نحو ألف ورقة وأجرى عليه كلّ هلال بدرة للنفقة... » وهي قرائن نعلمها في تأليف « الجامع » فلا ريب في أن هذا الكتاب هو كتاب « الجامع » وإن لم يسمّه العمري .

ونبقى أمام نصّي القفطسي وابن خلكان . والقفطسي أسبق من ابن خلكان . وقصة تأليف كتاب « الجامع » بطلب من المعزّ يرويها القفطسي (10) في تفاصيل دقيقة بينما هي خالية من الضبط عند ابن خلكان : فالقفطسي يذكر اسم المعزّ بقوله : « معدّ أبو تميم المدعو بالمعزّ المتولي على افريقية » ويذكر اسم عامله الذي أمره بتقديم طلبه إلى القزّاز في تأليف الكتاب وهو « عسلوج ابن الحسن الدنهاجي » والسنة التي كان فيها هذا الطلب وتاريخ الانتهاء من تأليف الكتاب فيقول : « وفي سنة 361 أمر معدّ أبو تميم المدعو بالمعزّ المتولي على افريقية عسلوج بن الحسن الدنهاجي العامل أن يأمر القزّاز النحوي هذا بأن يؤلّف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي... » إلى أن يقول : « ... فلما كان يوم الثلاثاء لثمانية عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان من السنة المقدّم ذكرها دخل محمد بن جعفر النحوي القزّاز هذا بالكتاب الذي أمر بتأليفه على يد عسلوج فوقف عليه المعزّ وأعجبه وقال للمصنّف.... » الخ.... (11).

(IO) كتاب « انباه الرواة » ج 3 ص ص 84 وما بعدها.

(II) المصدر السابق

أمّا ابن خلّكان فزيادة على تأخّره على القفطبي فإنّ سنده في قصّة طلب العزيز الفاطمي بمصر من القزّاز تأليف كتابه لا يطمئنّ معه الناقد إلى صحّة الخبر حتى يفضّله على غيره وإن انفرد هو بذكر السند . فهو لم يسمّ في روايته صاحب الخبر بل يقول (12) : « وقال غيره » [أي غير الصيرفي الراوي لما سبق في سياق الحديث] ثم يأتي بخبر طلب العزيز صاحب مصر إلى القزّاز بأن يؤلّف له كتابا في اللّغة . وعبارة « وقال غيره » هذه في عرف العلماء وابن خلّكان أيضا ضعيفة . ثم هو يختم أخباره عن هذا الكتاب بقوله : « ذكر ذلك كلّهُ الأمير المختار المعروف بالمسبحي في تاريخه الكبير » . وظاهر ما في هذا الخبر بسنده من الهلهلة بالنسبة إلى دقّة خبر القفطبي . وإن لم يأت بسند .

وإنما أطلنا في إثبات هذه النقطة من ظروف تأليف كتاب « الجامع » للقزّاز لأنّنا نستنتج من ذلك نتائج أخرى هامّة : منها أن القزّاز عاش تسعين سنة (90) لا سبعين (70) — والخلط بين العددين كما ذكرناه مرّات كثير في العربيّة — فعبارة ابن خلّكان : « وكانت وفاته بالحضرة [القيروان] سنة 412 وقد قارب السبعين » ينبغي أن نقرأها هكذا : « وقد قارب التسعين » فيكون القزّاز قد ولد حوالي سنة 325 لا سنة 345 . ذلك لأنّه إذا ما ثبت أنّ كتابه الكبير قد ألّفه سنة 361 — وقد ثبت في ما نعتقد أنّنا بيّناه هنا — فلا يعقل أن يكون القزّاز إذّاك ابن ستّ عشرة سنة فقط . فلا يتقدّم الخليفة بطلب كهذا إلى مراهق ومن أين له أن يعرفه على هذه السنّ ؟ . ثم إنّنا نعلم اعتناء المعزّ الفاطمي بالعلم والعلماء والأدب والأدباء بإفريقية كعنايته بابن هاني وأملهُ — الخائب — «فأخرة الشرق به . فذلك أقرب أن يكون منه لا من العزيز بعده.

والتبس الأمر على المؤرخين أصحاب هذه الترجمة — وهم من الشرق طبعا — لأنّ الشرق عندهم موطن الإلهام وهو أجدر من القيروان بأن يبرز فيه نوابغ الفكر وتظهر فيه درر التأليف .

وبعد فإنّنا نرجو ألاّ يرى شيخنا الأبرّ في هذه المحاولة لتحقيق نقطة من العلم إلاّ ثمرة مما غرس . فتأليفه منجم للبحث وبحر يغوص فيه طلاب اللآلي وطريقة مثلى نروم النسج على منوالها والسير في ضوئها . وأين لنا هذا إن لم يكن منه ذاك ؟

ثم أفلا نكون قد شاركنا بنصيب متواضع في الصرح الذي يريد تشييده قبل كلّ شيء ؟ فمغزى كتابه « الورقات » بل مرمى تأليفه الكبير « كتاب العمر » ليس إلاّ إعلاء مجد تونس بإبراز معالمها وأعلامها بعد إحقاق الحق . أفلا يرضيه أن نكون قد حاولنا إثبات « تونسيّة » كتاب « الجامع (13) » في موطن تأليفه وشخص طالب تأليفه وفي تقصير مدّة غربة مؤلفه عن الوطن — بعد إحقاق الحق ؟

ذلك أن كتاب « الورقات » يطفح كلّّه — من وراء ما حاولنا إبرازه من خصائصه العلميّة — بحبّ لهذا الوطن لم يضر صبغته العلميّة بل كان المؤلّف يعتمد هذه الصبغة العلميّة لتركيز ما يستخرجه من مفاخر وطنه ومآثر أبنائه فيبتهجج ابتهاج من خدم العلم والوطن . فلئن كان الكتاب كتاب علم فإن موضوعه يوافق هواية وشغفا في نفس مؤلفه وفعلا فإنّه قضى عمره في البحث والتنقيب بشغف وحماس وسرور على درر ثمينة أراد نظمها عقدا فآخرا تتحلّى به تونس مدى العصور ويكون كنزا لأبنائها الباحثين ينهلون من معينه ويسيرون في ضوئه لمواصلة عمل طالما دعاهم إلى الاضطلاع به وقد شرع لهم فيه سوى السبيل .

الشاذلي بويحيى